"انظر الى الماضى ساخطا"

دراسة تحليلية نقدية

عبدالمطلب عبدالرحمن

الاستاذ المشارك فى قسم اللغات الاوربية

حينما ظهرت مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » للكاتب المسرحى الرومانسى الحديث جون اوزبورن لاول مرة على مسرح الرويال كورت فى لندن فى الثامن من أيار عام ١٩٥٦ وجد فيها النقاد والكتاب المسرحيون تحولا كاملا فى مفهوم الدراما الانكليزية ، فعدّها الكاتب ريتشارد فايندليتر (Richard Findlater) نقطة تحول فى تاريخ المسرح البريطانى المعاصر»[١] . ويشاركه هذا الرأى الكاتب الشهير جون رسل تيلر فى كتابه (الغضب وما بعده) الذى ظهر عام ١٩٦٢ اذ يقول فى تعليقه على ليلة ظهور هذه المسرحية « بان الصورة الكاملة للكتابة (المسرحية)[٢] فى هذا البلد (انكلترة)[٢] قد تغيرت تماما اثناء الخمس سنوات الاخيرة »[٣] .

ولابد من الاشارة الى ان عمر المؤلف ، جون اوزبورن ، عند ظهور هذه المسرحية كان ستة وعشرين عاما ، وكان قد الف قبل ظهورها

---

(١) راجع مجلة القرن العشرين ، عدد شباط عام ١٩٦١ .

(٢) الاقواس ومحتواها من اضافة الكاتب .

(٣) راجع كتاب « الغضب وما بعده » (Anger and After) للكاتب جون رسل تيلر (John Russel Taylor) مطبعة لندن ، ١٩٦٢ .

مسرحيات عدة الا انه لم يكتب لاي منها الاخراج المسرحي ، مما اضطر المؤلف الى امتهان التمثيل كسبا للعيش • فعمل فى عدة مسارح فى مدن الاقاليم ، كما قام بادارة بعض الفرق المسرحية الصغيرة •

ويعد عمر جون اوزبورن عند ظهور هذه المسرحية على جانب كبير من الاهمية فانه كان صبيا خلال الحرب العالمية الثانية وكان شابا فى السنوات الكئيبة العجاف التى اعقبت الحرب وامتدت لحين احتفالات مهرجان بريطانيا (The Festival of Britain) عام ١٩٥١ •

وكغالبية الناس من ابناء جيله فانه كان يتحسس كل مشاعر السخط وعدم الرضا وخيبة الامل التى سادت تلك الفترة العصيبة التى لم يكن فى العالم باسره خلالها ما يدعو الى البهجة او التفاؤل • كما لم تكن هناك حينئذ أمام الشباب أصوات ملهمة ولا مثل أو قيم تستحق الذكر ، فقد بدا كل شيء دون غاية او هدف • اما الجيل السابق فكان لايزال يعيش فى ماضيه مؤمنا بقيم ومفاهيم اصبحت عقيمة لاتنسجم مع روح العصر • وكانت الحواجز الطبقية لاتزال قائمة باصرار وعمد ، ومن بينها ان الثقافة والحضارة وقف على الاقلية من ابناء الطبقة الراقية الموسرة •

تحسس اوزبورن الحالة هذه كما تحسس الجو المحيط بها باسره فقام بافراغها والتعبير عنها فى مسرحيته (انظر الى الماضى ساخطا) بدقة وبراعة ، وليس أدل على ذلك من استهلالها • اذ يرينا الكاتب غرفة علوية لدار قديمة بنيت فى عهد الملكة فكتوريا(٤) • وهى غرفة لم يخطر ببال صاحب الدار عند تشييدها انها ستستعمل غرفة للسكن بل مجرد فسحة لحفظ الاثاث الزائدة عن الحاجة وخزن الحقائب والصناديق الفارغة •

---

(٤) فكوريا ، ملكة انكلترة ، حكمت البلاد فترة طويلة امتدت من عام ١٨٣٧ الى ١٩٠١ •

وهى المكان الذى نجد فيه خزان الماء فى البيوت الانكليزية عادة • وفى وقت ظهور المسرحية على خشبة المسرح أى عام ١٩٥٦ فانها استخدمت غرفة للجلوس فى شقة صغيرة يشغلها ثلاثة اشخاص هم : جيمى بورثر وزوجته اليسون ونزيل (Lodger) عندهما يدعى كليف • ونلاحظ أن خزان الماء قد تحول الى منضدة ، وقبل ان نسمع كلمة واحدة وبمجرد القاء نظرة على الغرفة فاننا ندرك بالتوّ مشكلات السكن وما يرافقها من امور اجتماعية مريرة ونشعر بالاستغلال البشع الذى تفشى فى انكلترة فى العقد السادس من هذا القرن •

يبدأ الفصل الاول من هذه المسرحية فى مساء يوم الاحد والسيدة اليسون تكوي ملابس زوجها جيمي بينما يقوم هو وكليف بمطالعة صحف ذلك اليوم • وفى الحال يقذف جيمى بالصحيفة بغضب وسخط ظاهرين قائلا :(٥) _

« لقد قرأت توّاً ثلاثة حقول كاملة عن الرواية الانكليزية ، وكان نصفها مكتوبا باللغة الفرنسية • اما تجعلك صحف يوم الاحد تشعر بالجهل ؟ (٦) » •

فما الحاجة الى أي تعليق آخر ؟ الحاجز الطبقي واضح للعيان ومطبق عمليا • وكأن لسان حال الاقلية المثقفة صاحب الامتيازات يقول ان الرواية لا علاقة لها اطلاقا بالعامة من الناس وليس لديها ما تقدمه لهم • وخشية قيامهم باظهار اهتمام ورغبة فيها فاننا سنقوم بمناقشتها والتحدث عنها باللغة الفرنسية وبذلك يتيسر لنا ابعادهم عنها •

---

(٥) ان ترجمة جميع المقتطفات من المسرحية والاشارات من المراجع هى مسؤولية كاتب المقال •

(٦) راجع مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » طبعة فيبر ، الصفحات ١٠-١١ •

وبمجرد مشاهدة استهلال المسرحية فاننا نستطيع التكهن بمضونها وما ستنطوى عليه من امور • ومما يساعد على التوصل الى هذا الرأى تركيبها ولهجة الحوار فيها ، انها لامحال ستكون انتقادا لاذعاً لاوضاع الحياة الاجتماعية والسياسية والخلقية ، وانها ستتقصى كيفية ومدى تأثير هذه الاوضاع على حياة شخص او شخصين • وهذا بذاته يبدو معقولا بما فيه الكفاية ولا يبعث على الدهشة الكبيرة ؛ اذ ان معالجة صورة من صورة الحياة فى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية فى مسرحية تظهر عام ١٩٥٦ لهو أمر لا يدعو الى الاستغراب والفزع الشديدين مطلقا • والواقع ان المسرحية فعلت ذلك حيث ان جيل اوزبورن اخذ يعبّر لاول مرة وبصوت عال عن مشاعره الحقيقية على المسرح •

ولقد اصبح واضحا لدى الرأى العام منذ اوائل العقد السادس من هذا القرن ان شخصية جديدة قد اخذت بالظهور ، وان الجيل الجديد لاتفصل بينه وبين الاجيال السابقة الحرب العالمية الثانية فحسب بل تفصل بينهما هوة سحيقة من الافكار والقيم • فان بعض الروايات والمؤلفات من من أمثال (جيم المحظوظ)(٧) و (مكان فى الاعلى)(٨) و (اللامنتمى)(٩) كشفت كلها عن هذه الشخصية الجديدة التى هى ليست بالشخصية البطولية بل هى شخصية فردية غارقة فى بحر من الفوضى ، اما جون

---

(٧) ان هذه الرواية وعنوانها بالانكليزية (Lucky Jim) هى من تأليف الكاتب ك ايميس (Kingsley Amis) .

(٨) عنوان هذه الرواية بالانكليزية (Room at the Top) وهى من تأليف الكاتب جون برين (John Braine) .

(٩) « اللامنتمي » وبالانكليزية (The Outsider) دراسة عميقة من تأليف الكاتب الشهير كولن ويلسون • كان لظهورها صدى كبير فى العقد السادس وقام بنقلها الى اللغة العربية الاديب العراقى انيس زكى حسن •

أوزبورن فانه قد أظهر على المسرح لاول مرة شخصية فوضوية تعد نموذجاً لابناء الجيل الجديد • انه جيمن بورتر : شاب يفيض طاقة وحيوية ، متحدث لبق ورجل لديه الكثير مما يستطيع تقديمه لو استطاع أن يجد الشخص المناسب الذى يقدمه اليه • ان مشكلته هو انه لايستطيع العثور على هذا الشخص ، أو على الاقل أنه قد أقنع نفسه بأنه لا يستطيع ذلك • انه يعتقد جازما ان ظروفه الطبقية تعمل ضده وتحول دون ذلك • ان ثقافته اعتيادية جدا وليس فيها من الاتقان والذكاء ما يجعله يزهو بها او يشعر بالرفعة والتعالى بسببها • فلم يكن من نصيبه الدراسة فى المدارس الخاصة العريقة التى كانت وقفا على الطبقة الراقية ، كما انه لم يلتحق باحدى الجامعات العريقة كاوكسفورد او كمبردج التى تحمل ربطة العنق من احداها سحرا كبيرا يفتح جميع الابواب تقريبا لمرتديها ، انه ضيق اليد ، يسارى الميول والنزعات ومناهض للسلطة وهكذا • كل هذا جعل منه نموذجاً للشباب المرتبك الفكر المشوش من ابناء جيله • وهو بالاضافة الى كل ذلك رجل مثالى •

ومن المهم ان نتذكر مثاليته • فغالبا ما ينظر اليه على انه سلبي للغاية ، يحاول هدم كل شيء وينتقد من اجل مجرد الانتقاد • على ان وراء ما يتفوه به من كلمات او تعليقات ازدرائية معنى لشيء مختلف يهدف الى الافضل • ولتوضيح هذه النقطة نأخذ على سبيل المثال تعليقه على مقال صحيفة يوم الاحد عن الرواية الانكليزية • انه فى هذا التعليق لا يعبر عن اهتمام ورغبة شديدتين فى قراءة ما يكتب عن الرواية فحسب بل انه يعبر ايضا عن ادراك وتحسس عميقين لمزايا وافضلية كون المقال باللغة الانكليزية • وعليه فان الملاحظة الاولى المهمة حقا عن مسرحية (انظر الى الماضى ساخطاً) هى انها تضع على المسرح بكل وضوح واصرار الشخصية التى أخذ الروائيون وعلماء الاجتماع بل حتى رجال السياسة انفسهم يعدونها

بعيوبها ومزاياها الممثل الحقيقى للاكثرية الساحقة فى بريطانيا لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو الجيل الذى اخذ يحتل مكانة مرموقة وأخذت البلاد تعتمد عليه وتحسب له حساباً • وهذه الحقيقة بالذات هي التي أقضت مضاجع كثير من الناس ولا سيما الجيل المتقدم بالعمر الذى اخذ يشعر بانه غير مرغوب فيه وانه قد يزحزح من مواضعه بوقاحة وفظاظة • وفضلا عن ذلك فانه اخذ يحس بان هنالك محاولة لتقويض قيمه وتقاليده ، تلك التقاليد والمفاهيم التي واكبت الحياة الانكليزية وكانت جزءاً منها لفترة طويلة جدا • لقد كانت خيبة املهم عظيمة عندما احسوا بان جيمي بورتر يقصدهم بالذات بانتقاداته وتهجمه وانه يلقى الاستحسان والقبول فى ذلك • انهم كانوا لامحال يشاركونه عاطفيا وانفعاليا فى هذه المسرحية • فلم يكن ممكنا بالنسبة اليهم باى حال من الاحوال الجلوس لمشاهدتها بصورة موضوعية باعتبارها مجرد عرض منطقي لموقف من المواقف • لقد كانت مشاهدة هذه المسرحية تجربة فريدة تمتع بها واحبها قطاع كبير من المشاهدين وكرها آخرون • فان كان المشاهد شاباً فانه استمتع بها لانها عبرت بصوت مرتفع عن معتقداته والمأزق الذى هو فيه وعن مواقفه تجاه المجتمع الذى من حوله • وان كان المشاهد اكبر سنا فانه كرهها لانها اغاظته ودنست كل مفاهيمه ومايعتز به من مبادىء ولانها وضعت علامات استفهام على القيم التى يؤمن بها على الرغم من انه لايجرؤ على الاعتراف بانها زائفة ومغلوطة • وهذا الموقف بالذات هو ما كشف عنه جون اوزبورن باحساس عميق بالدور الذى اعطاه الى والد اليسون ـ زوجة جيمي بورتر ـ وهو ضابط متقاعد فى الجيش الهندى برتبة عقيد • ففى الفصل الثاني من المسرحية يقول هذا الضابط المتقاعد « ربما يكون جيمي مصيبا • وربما اكون انا ـ كيف اصف نفسي ؟ نبتة

شائخة مهجورة من برارى عهد الملك ادورد[١٠] . ولا استطيع ان افهم لما لا تشرق الشمس بعد الآن[١١]» .

وهنالك سبب آخر لنفور بعض المشاهدين من هذه المسرحية عند ظهورها عام ١٩٥٦ من الذين تكونت ونمت اذواقهم المسرحية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن الا وهو فشلها فى تقديم حلول للمشكلات التى عملت على عرضها واثارتها . فليس فيها خاتمة حقيقية . ومن المؤكد ان الخاتمة التى تنتهى بها المسرحية ليست من النوع الذى يوحى بان الامور ستكون مختلفة بعد ذلك او انها ستسير نحو الافضل او حتى نحو الاسوأ . وكل ما تتوصل اليه فى النهاية هو الاحساس باننا ندور فى حلقة .

ان هذا الامر بالذات هو ما تتميز به معظم الكتابات الحديثة على الرغم من أنه لا يعد من مبتكرات العصر الحاضر اذ يمكن الرجوع به الى تشيكوف الذى كان ينادى بان وظيفة الكاتب المسرحى ليست تقديم الحلول للمشكلات التى يعرضها بل ان واجبه ينحصر فى ذكرها[١٢] ، وذلك واجب ليس من السهل ادراكه وتحقيقه . وفى الواقع انه يفوق فى صعوبته تقديم او حتى اقتراح الحلول ، فحكم الاعدام مثلا هو احد السبل لحل مشكلة ما يجب على المجتمع القيام به تجاه القاتل ، الا انه لا يقترب من تفهم مشكلة الاغتيال . ان واجب الكاتب المسرحى ليس ان يكون جلادا بل محللا .

ثم اننا كيف نستطيع ان نطلب او ننتظر من الكاتب المسرحي ان يجهزنا بحلول لمعضلات الحياة التى يقع اختياره عليها عندما لا تكون لهذه

---

(١٠) المقصود هنا الفترة التى تقع ما بين الحرب العالميه الاولى والثانية وليس فترة حكم هذا الملك الفعلية حيث حكم البلاد بين ١٩٠١-١٩١٠ . راجع مختصر تاريخ انكلترة للمؤرخ جي . ام . ترفيليان .

(١١) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » طبعة فيبر ص ٦٧ .

(١٢) راجع كتاب « مسرح اللامعقول » لمؤلفه مارتن اسلين ـ الفصل السابع عن اهمية اللامعقول ص ٣٨٩ ـ طبعه بنجوين المنقحة والموسعة .

المعضلات حلول فى الحياة الواقعية ؟ ان الناس من امثال جيمى بورتر لا يتبدلون بين عشية وضحاها • على ان الحل الوحيد لمشكلته هو تحول فجائي اما فى نفسه او فى المجتمع باسره وكلا الحلين غير محتمل •

وعليه فان جيمي بورتر ، الشخصية الرئيسة فى مسرحية (انظر الى الماضى ساخطا) يهاجم المجتمع والاعراف السائدة وجهاز الحكم طول الوقت • الا أنه لم يقدم لنا قيماً جديدة بديلا عنها بل يكتفي بالاشارة بصورة مستمرة الى ضرورة التغير • ان تأكيده على ضرورة التغيير هو الذى حدى بالمدافعين عن هذه المسرحية عام ١٩٥٦ الى ان يولوها اهمية كبيرة خاصة • فانهم كانوا ينظرون اليها على انها وثيقة اجتماعية خطيرة •

وعلى الرغم من كل ذلك فانها ليست بالمسرحية الاجتماعية او السياسية ، انها تكشف النقاب عن حياة جماعة صغيرة من الناس فى ظرف اجتماعى وسياسى معين • انها فى الاساس مسرحية عن الناس • وهكذا يجب ان ينظر اليها •

ومن الواضح اننى قد اكدت على عام ١٩٥٦ وهو العام الذى ظهرت فيه هذه المسرحية لان تلك الفترة كانت قد ابرزت اهمية هذه المسرحية ومضامينها السياسية • أما الآن وبعد مرور خمسة عشر[١٣] عاما على ظهورها فان الاحوال والظروف قد تغيرت كما ان جيمى بورتر وامثاله من ابناء ذلك الجيل هم الآخرون قد تغيروا ايضا • الا ان المسرحية باقية وهى تعيش الآن فى محتوى جديد ومناخ آخر • ويعزى بقاؤها واستمراريتها ليس الى مضامينها السياسية بل الى قوة الكتابة فيها (وهو ما سأتطرق اليه فيما بعد) والى قوة تصوير شخصياتها والى استلطاف الشباب الثائر لها واعجابهم بها ، اذ انه لا تمر سوى فترة وجيزة لا تتعدى بضع دقائق بعد

---

(١٣) اى وقت اعداد هذا البحث عام ١٩٧١ •

افتتاح المسرحية الا ونشعر ونتحسس بوضوح قوة شخصيات افرادها الثلاثة جيمي بورتر وزوجته اليسون وكليف • وذلك امر مهم ومثير ويسترعى الانتباه • فالمسرحيات التقليدية تنصرف فى البداية الى ترسيخ وتعميق قصة المسرحية مؤجلة تعريف المشاهد بالاشخاص الذين تحتويهم الى مرحلة لاحقة ، بينما لا يخبرنا اوزبورن عن القصة شيئاً فى بداية المسرحية • وهو بالطبع مصيب جدا باغفاله ذلك ، اذ ان التأكيد على الناحية القصصية منذ البداية ليس له ما يبرره ، فالحياة الواقعية لا تتوقف لتوضح نفسها الينا • لماذا اذن يجب على المسرحية ان تقوم بذلك وهى فى جوهرها محاولة لتقليد الحياة ؟ اننا فى هذه المسرحية نجد انفسنا دون انذار مسبق فى موقف يتعلق بعائلة بورتر فى امسية يوم الاحد • فان اردنا ان نفهم هذا الموقف فمن الضرورى ان ينجلي ويتوضح لنا حالا • فمن الناحية المثالية يجب أن يكون بمقدورنا فهم وادراك الموقف المسرحي لحظة مشاهدته دون أن يفسر لنا • وأي أمر يتحتم علينا معرفته عن خلفية الموقف يجب ان يبرز تلقائيا •

ان هذا هو الاسلوب المتبع فى الكتابات الحديثة ، فالكاتب المسرحى مقيد بفترة زمنية معينة ساعة ونصف الساعة او ساعتين ليكشف لنا عن عالم مسرحيته ، وهى فترة قصيرة جدا نسبيا • فان ابتدأ باستعراض مطول وتمحيص دقيق للفترة الزمنية التى تسبق المسرحية فانه يؤخر بذلك التوغل فى الموضوع • انه ان فعل ذلك انما يستعمل اسلوب الكاتب الروائي اكثر من استعماله اسلوب الكاتب المسرحى • ففى الرواية عادة نتوقع ان نجد مقطوعات قصصية طويلة بكلمات المؤلف ولسانه • كما ننتظر منه ان يساعدنا فى وصف الشخصيات وجوها وفى اطلاعنا على الظروف التى ادت الى الموقف الذى هوبصدد معالجته•وهذا لا يمكن أن يحدث فى الكتابة المسرحية لان المؤلف لا يساهم فيها شخصيا • فان قام المؤلف المسرحى باجبار

شخصياته المسرحية على ذلك لاجل المشاهدين واجبرهم على التوقف لتفسير بعض التفاصيل لزملائهم الشخصيات الاخرى فى المسرحية فانه بذلك يعرقل سير الفعل المسرحي •

ومما لاشك فيه ان بداية اية مسرحية ليست بالمهمة اليسيرة اطلاقا • فمن الضرورى وقوع حدث ما ، على ان اللمحات الخلفية (اى تسليط الاضواء على بعض الاحداث السابقة بصورة سريعة) قبل ان تتحرك المسرحية الى الامام تعد في الوقت الحاضر خطأ كبيرا • ان اوزبورن ومعظم الكتاب الشباب يقذفون بنا بكل بساطة ودونما اى تردد فى وسط مسرحياتهم • فمسرحية (انظر الى الماضى ساخطا) لا تخبرنا بشىء • انها تقوم بمجرد فتح باب الغرفة العلوية وتسمح لنا بالمساهمة فى حياة جيمي واليسوا وكليف دون اى تفسير او تعليق •

وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان اوزبورن لا يهتم بالماضى ، فالعكس هو الصحيح • انه يدرك جيدا ان للماضى قوة فعالة وخطرة فى آن واحد وان اهتمامه به يعزى الى تأثيره على حياة شخصياته • انه ينقل هذا الاحساس باهمية الماضى الى جيمي بورتر الذى لا يستطيع نسيان ماضيه كما لا يستطيع الصفح عن ماضي زوجته ، فهو دائم الهجوم عليها بسبب ابيها ، الضابط فى الجيش الهندى سابقا ، وبسبب محيطها العائلى الذى ينتمي الى الفئة الراقية من الطبقة المتوسطة • والزوجة اليسون هى الاخرى تدرك اهمية الماضى وتدرك ايضا ان لا مفر منه • ففى المشهد الاول من الفصل الثانى عندما تتحدث الى صديقتها المثلة هيلينا التى اتت لزيارتهم نجدها تقول فى وصف ذكرياتها ليوم زفافها :

« كانت اول مناسبة فى حياتى افترق فيها عن الناس الذين عرفتهم طيلة حياتى : عائلتى ، اصدقائى وكل معارفى ، كنت قد احرقت

قـــواربي »[١٤] .

لقد كان الماضى قد وفر لها طريقة واسلوبا فى الحياة ، كما يفعـــل بالنسبة لنا جميعا . كان قد وفر لها الامان والطمأنينية حيث كانت لحين يوم زواجها تستطيع اللجوء اليه فى اى وقت تشاء . على انها تزوجت شـــخصا من محيط اجتماعى يختلف كليا عن محيطها وبهذا فانها قد اقتلعت نفسها بعنف من المحيط الذى كان يوفر لها الشعور بالطمأنينة والاستقرار والذى كانت تتشبث به دائما وزجت بنفسها فى عالم محيّر رث . كل ذلك ينجلي امامنا ببطىء وبدون لف او دوران ونحن نتوغل فى المسرحية . ان الفعل المسرحى لا يتوقف ابدا حينما ينقل الينا ذلك .

وعلى كل حال فان ربط الحقائق بعضها ببعض ببطىء وتدرج اكثـر درامية من مجرد وضعها نصب اعيننا بانتظام واناقة دفعة واحدة .

وبنفس الاسلوب ونفس التدرج ينقل الينا اوزبورن المعلومات عـن جيمي بورتر . فاننا بعد ان نتعرف عليه ونكتشف بانه انسان حقود ، قاس، سريع الغضب والانفعال وانه شريف ومستقيم الى حد الدهشة نبدأ نجمع الاشارات والنتف عما حدث له فى الماضى وادى به الى ما هو عليه الان .

جيمي : « شاهدت والدى على فراش الموت لاثنى عشر شهرا وانا فى العاشرة من عمرى . وكان قد عاد من الحرب فى اسـبانيا ، كمـا ترى . وبعض السادة المحترمين الذين يخشون الله هناك جعلوا منه حطاما بحيث انه لم يبق على قيد الحياة طويلا بعد ذلك . ولـكن ، كمـا ترى ، كنت الشخص الوحيد الذي اكترث للامر . أما عائلته فكانت خجلة ومرتبكـة لكل ما قام به . خجلة ومنزعجة . اما والدتي فكل ما استطاعت ان تفكـر

---

(١٤) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » ـ الطبعة المشار اليهـا سابقا ـ ص ٤٣ .

فيه هو انها قد ارتبطت برجل يبدو انه مع الجهة الخاسرة فى كل شىء . اما والدته فكانت تعمل بكل جوارحها لان يكون لها ارتباطات مع الاقليات الراقية ، شرط ان يكونوا من المهتمين بالاناقة والازياء الحديثة[١٥] .

ويستمر جيمي فى مزيد من الايضاح فى جزء لا حق من نفس الخطاب :

جيمي : « انني ، كما ترى ، قد تعلمت من حداثة سنى ما ينطوى عليه أن يكون المرء غاضباً وبائساً . انني لا أستطيع نسيان ذلك قط »[١٦] .

ان هذا يلقي ضوءا جديدا على جيمي فان غضبه ينبع من موقفه اليائس الفظيع ذلك الموقف الذى يتلخص فى عدم قدرته القيام باى شىء حيال القضايا التي تزعجه وتقلق باله . وفى استطاعتنا الآن أن نرى بسهولة كيف ان هذا الشلل قد توسع فشمل هجومه على المجتمع وانتقاده له . فعندما يتهمه الناس بانه رجل صراخ فقط ليس لديه شىء بناء يقوله ، فان جوابه : « ماذا يستطيع المرء ان يفعل سوى الصراخ » .

ومن التقاليد المرعية ان الشخصية التى تستأثر باعظم درجة من المشاركة العاطفية فى اية مسرحية هى الشخصية المركزية الرئيسة فيها دون سواها . والمشاركة العاطفية تستند فى الغالب على العطف وهو ذلك الشعور الذي يجرنا الى وضع أنفسنا فى موضعها وتمثلنا بها وعيش مشكلتها وكأنها مشكلتنا[١٧] . على ان العلاقة بين جيمى بورتر وجمهور المشاهدين ليست بهذه البساطة فانه ليس بالبطل الذى يسحر القلوب ويسلبها (وليس بالرجل الشرير الذى يمكن ان يمقت) على الرغم من شعورنا بالعطف عليه فى

---

(١٥) المصدر ذاته ص ٥٧ .
(١٦) المصدر نفسه ص ٥٨ .
(١٧) راجع البحث الذى قام به كاتب هذا البحث بعنوان « مفاهيم واتجاهات جديدة فى المسرح الانكليزى الحديث » المنشور فى مجلة كلية الآداب / العدد الرابع عشر / مطبعة المعارف ص ٤١٤ .

بداية المسرحية • ان تعليقه على مقال صحيفة يوم الاحد من ان نصفه باللغة الفرنسية تعليق مصيب جدا فانه يضعه فى الحال فى صفوف الاغلبية الساحقة التى تحس بانها مستعبدة ومحرومة • على ان الانجذاب اليه لا يستمر طويلا فانه سرعان ما يصبح الشخصية الرئيسة غير المحببة الى النفوس لانـه يبدو عليه أنه يتعمد الاغاظة وليس لديه أي احترام أو شعور طيب نحوالآخرين• انـه يتحول الى رجل عديم الاحساس وقاس دون اى مبرر •

ففى المشهد الافتتاحى الذى سبقت الاشارة اليه وبعـد الانتهـاء من التعليق على المقال عن الرواية الانكليزية المنشورة فى الصحيفة اليومية يعود جيمي الى المطالعة او الحديث مع كليف بينما نرى اليسون منهمكة فـى تنظيف وكي الملابس وفكرها مشغول بامورها الخاصة ولعلها كانت تفكـر فى ماضيها الذى نوهنا عنه قبل قليل • على ان جيمي بورتر يرغب بشـدة فى جرها الى الحديث • انه لا يفعل ذلك بدعوتها الى الكلام بل بمهاجمتها بقسوة • فعندما تجيب على سؤاله « يؤسفني انني لم أكن صاغية » يفاجئهـا بقوله « اراهن انك لم تكوني صاغية ابدا • فعندما يتحدث بورتر العجـوز فالكل يديرون ظهورهم وينامون • والسيدة بورتر[١٨] تشجعهم عـلى ذلك بان تكون اولى المتثائبين[١٩] •

وبعد هذا الحديث بقليل يختطف جيمـى جـريدة كليف ويرفض اعادتها اليه فتقول اليسون : « اوه ، اعطه اياها يا جيمى بحق السـماء ! لااستطيع التفكير[١٩] ، فما كان منه الا ان قذف بالجريدة الى كليف قائل :ـ « لا استطيع التفكير ! ما جالت فى رأسها فكرة لسنوات »[٢٠] !

---

(١٨) المقصود هنا اليسون زوجة جيمي بورتر •
(١٩) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » ـ الطبعة المشار اليهـا سـابقا ـ ص ١١ •
(٢٠) المصدر اعلاه ـ ص ١٢ •

وبقدر تعلق الامر بجيمي وبعالمه الخاص به فانه الشخص الوحيد الذى يتمتع بقسط من الحيوية والنشاط وكل ما سواه نصف ميت ، وخاصة زوجته • انه يعصف بها لانها نصف ميتة ولانها لا ولن تقف بوجهه وتخاصمه• فالمعركة تستمر الى نهاية المسرحية على مستويين مختلفين• فهو اعتدائي، مادى ، كثير الكلام • اما زوجته فهادئة ، ساهية منطوية وبالتالى فهى مستقلة• ولعل ذلك ما يزعجه ويستثيره فيها •

ويبدو من تصرفات جيمى ان زواجه من اليسون فرصة مواتية للهجوم على الطبقة الاجتماعية التى تنحدر منها والتى يكرهها كرها شديدا • انه ينوى تحطيم زوجته وبالتالى تحطيم طبقتها • الا انه لا يستطيع تحطيم زوجته لانه لا يستطيع السيطرة عليها • فهي ترفض الدخول فى مناقشات ومهاترات معه • وان كانت هنالك ثمة انتصارات فهى انتصاراتها لان بيدها مفتاح تطمين اهم رغباته : الجنس ، فهو يشتهيها بفظاعة ونهم شديدين •

وكلما انكشف هذا الموقف امامنا صعب علينا ان نقرر فيما اذا كان جيمي بطلا او شريرا على الرغم من اننا نبقى نشاركه عاطفيا • ولا يحاول اوزبورن فى اى موقف من مواقف هذه المسرحية ان يباعد بيننا وبينه • وعلى العكس فانه فى الحقيقة يجرنا بصورة عاطفية الى التوغل اعمق فاعمق فى المسرحية وذلك باخضاعنا الى استجابات عاطفية متطرفة • فمثلا بعد ان يفلح المؤلف فى اقناعنا بان جيمى بورتر رجل متهور ومحب للانتقام نجده فجأة وبصورة درامية للغاية يقدمه الينا رقيقا جدا وأشبه ما يكون بالطفل الخائف • فعندما يستمر جيمي وكليف بالمزاح تارة والقدح اخرى يتطور الامر بينهما الى شجار ينجم عنه انقلاب خشبة مكواة الملابس واصابة اليسون بحروق مما يجعل جيمي يجمد فى موضعه ويعتذر قائلا «آسف يا حبيبتي»[٢١]!

---

(٢١) المصدر اعلاه ص ٢٦ •

الا ان حبيبته لا تكترث لاعتذاره فقد تحملته اكثر من طاقتها فتطلب منه الابتعاد عنها والخروج من الشقة .

ان هذه لحظة درامية مشحونة وكان من الممكن ان تؤدى الى نقطة تحول فى حياتهما الزوجية ، الا انهما كانا قد وصلا فى حياتهما المتوترة مرحلة يحاولان فيها متعمدين جعل الامور صعبة بل مستحيلة . فكل منهما لا يقل سؤا عن الآخر . فبعد لحظات قليلة من هذا الحادث وبعد مغادرة جيمي الشقة مطرودا نستمع اليها تقول :ـ

« لا انفك امعن النظر فى الماضى ، قدر ما تسعفنى الذاكرة ، فلا اهتدى الى كيف كنت احس وانا شابة ، وعندما عبّر لي جيمي عن احساس مماثل قبل ايام تظاهرت بعدم الاصغاء لاننى كنت اعلم ، على ما اعتقد ، بان ذلك سيؤلمه . وبالطبع طار صوابه لذلك فأصبح شرساً كما حصل الليلة تماماً . على انني كنت ادرك ما كان يرمي اليه وكان من السهل جدا علىّ ـ على ما أعتقد ـ ان أقول « نعم يا حبيبي ، أعلم ما يدور فى خلدك ، وأعلم ما تحس به » . ان هذه الامور البسيطة هى التى اصبحت ، على ما يبدو ، متعذرة علينا جدا »[٢٢] .

لدى تحليل المسرحية ودراستها بهذا الشكل يتضح لنا بصورة متزايدة بانها دراسة لنوع من العلاقة الانسانية اكثر من اى شىء آخر واكثر من كونها بيانا سياسيا على وجه التخصيص . ومما لا ريب فيه ان جيمي بورتر ينتمي الى فئة اليسار وانه ناقد عنيف للقيم المعاصرة البالية ولكل ما هو مزيف وللحياة الباهتة البليدة . ولكن كل هذا يعد ثانويا ما لم يستطع خلق علاقة بشرية واحدة ناجحة على الاقل ، فضلا عن انها سليمة وصالحة . فان الحياة التى لا تسير بصورة طبيعية على المستوى الشخصى لا تستحق شيئا

---

(٢٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

يذكر • ومشكلة جيمي هى انه ظاهريا يميل الى الاستمتاع بفشله • فانه يكاد يتمرغ فى التعاسة والبؤس والرثاء لحاله كما لو كان ذلك حقا طبيعيا من حقوقه • ان هذا بالتأكيد ما تتصوره عنه زوجته اليسون • ففى احدى المناسبات تطلب من صديقتها هيلينا ان لا تضيع وقتها فى محاولة فهمه وتقول لها بالله عليك « لا تحرميه من معاناته ، فانه بدونها يضيع »[٢٣] •

ومرة اخرى يعبث اوزبورن بعواطفنا بذكاء • فبعد ان يتم له اقناعنا بان اليسون مصيبة فى رأيها عن زوجها التعس يسمح لجيمى ان يطلعنا على ماضيه وعلى الفترة العصيبة التى مرت عليه عند احتضار والده مما كان له كبير الاثر فى حالة الغضب المسيطرة عليه • وبهذا فانه يستعيد عطفنا عليه ومما يساعده على الاحتفاظ بهذا العطف ردحا من الزمن وصول انباء مفادها ان سيدة طاعنة فى السن كان جيمى ولا يزال يكن لها عميق الحب تحتضر على فراش الموت مما يحمله على الذهاب لزيارتها فورا • ومن الطبيعي ان يتوقع من زوجته ان ترافقه وبدلا من ان تفعل ذلك فانها تختار الذهاب الى الكنيسة برفقة صديقتها هيلينا • وهو اختيار سيء بالنسبة لجيمى فى اى ظرف من الظروف ، الا انه فى هذه المناسبة بالذات امر محيّر للغاية فيقول :ـ

جيمي : « انك آتية معى ، اليس كذلك ؟ فليس لديها[٢٤] أحد الآن • اننى ••• احتاج اليك ••• فى المجيء معى[٢٥] » •

وتتردد اليسون لحظة ثم تلتفت نحو هيلينا وتهمس : لنذهب[٢٦] •

---

(٢٣) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » ص ٥٤ •
(٢٤) المقصود هنا السيدة العجوز صديقة جيمي القديمة •
(٢٥) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » الطبعة المشار اليها ص٦٢ •
(٢٦) المصدر اعلاه ص ٦٣ •

وهكذا ينتهي المشهد ويبقى جيمى وحيدا منبوذا • ولعله يستحق ذلك لان تصرفاته هى التى ادت به الى هذه النهاية • على اننا نرثي لحاله ويستمر هذا الشعور نحوه فى الجزء الاعظم من المشهد الذى يلي هذا المشهد على الرغم من كون جيمي خارج المسرح • ففي غياب جيمى عن الشقة تعمل هيلينا على قلب الحياة العائلية لآل بورتر رأسا على عقب • فهى تدبر زيارة لوالد اليسون ـ الكولونيل المتقاعد ـ لابعاد ابنته عن جيمي ، لعطلة قصيرة على الاقل • ويصل الاب فيستقر رأى اليسون على الذهاب معه معتقدة حتى اللحظة الاخيرة بان هيلينا ذاهبة هى الاخرى معها • الا ان هيلينا تعتذر عن مرافقتها مدعية بان لديها موعدا فى اليوم التالى يضطرها على البقاء فى الشقة ليلة اخرى على الاقل •

وليس هنالك أى دليل يشير مباشرة الى دوافع خفية تكمن وراء فعلتها هذه • غير انه لا مفر من الشك بصدق نواياها • فعندما يعود جيمي الى بيته نجدها هناك وحيدة فى استقباله ونعلم منه بان السيدة العجوز قد فارقت الحياة • انه الان متعكر المزاج الى حد كبير ، ومما يزيد الامور سوءا وتعقيدا تلك الرسالة التى كانت اليسون قد تركتها له قبل مغادرتها الشقة • ثم ان الاخبار التى تنقلها اليه هيلينا بهدوء وعدم انفعال من ان زوجته حامل كان لها وقع سيء يدفع به الى حالة من الهيجان يصبح خلالها بذيء اللسان جدا مما لا تستطيع هيلينا تحمله فتلطمه على وجهه لطمة شديدة كان لها وقع الصاعقة عليه • الا انه من الناحية الاخرى قد وجد ضالته فى هيلينا • فقد اهتدى اخيرا الى شخص مستعد للوقوف فى وجهه ومخاصمته وهو ما كان يبحث عنه ويتطلع اليه بشوق • وتسدل الستارة فى الوقت الذى تقوم هيلينا بتقبيله بعاطفه ملتهبة •

انها لنهاية درامية حقا تعد نموذجا صادقا لاسلوب اوزبورن • انه بهذه النهاية يزيد انطباعنا تعقيدا عن جيمى وعن الموقف برمته • ولقد تم

له ذلك بنقل مواضع اهتمامنا بصورة غير متوقعة • انه قد غير المراكز التى كنا نوليها انتباهنا بحيث لم نعد نستطيع بعدها الاعتماد على استنتاجاتنا • وبهذا فاننا نتطلع الى الفصل القادم من المسرحية بشيء من الحيرة محاولين فى الوقت ذاته جمع شتات عواطفنا المبعثرة • وسواء أكان مصدر تشتيت عواطفنا الحب او الكراهية فمما لا شك فيه ان المسرحية قد فعلت ذلك عاطفيا ، حيث ان القضايا الاجتماعية والسياسية التى كنا نتصور بانها تحتل المكان الاول فى المسرحية قد اضمحلت واوشكت على الزوال • وان الصراع الطبقى بين الجيل الجديد والقديم قد اصبح هو الآخر عديم الاهمية بعد الآن • فالمسرحية اذن ما هى الا حرب جنسية او انها تبدو كذلك فى هذه اللحظة على الاقل • وتستمر المسرحية على هذا المنوال فى المشهد الاول من الفصل الثالث الذى نجد انفسنا فيه عائدين الى بداية المسرحية والى المشهد الاول منها بالذات حيث نرى جيمي وكليف يقرآن صحف يوم الاحد • والفارق هو ان المرأة الواقفة بالقرب من خشبة كي الملابس هى ليست اليسون الزوجة بل الضيفة هيلينا صديقتها • على ان اليسون تعود اخيرا • ولعل المسرحية هنا فى اضعف مواقفها • فان اليسون تعود وقد فقدت طفلها • وهذا بالنسبة الى جيمي له تفسير واحد وهو انها قد عادت وهى امرأة تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه سابقا حيث انه كان قد قال لها مرة :

آه لو كنت تستطيعين ان تنجبي طفلا ويموت ••• ليتني أستطيع مشاهدتك وانت تواجهين ذلك • ترى هل فى امكانك ان تصبحى بشرا سويا ! الا انني اشك فى ذلك[٢٧] • اذن جيمى كان يتمنى ان تجابه زوجته ازمة خطيرة وصدمة عنيفة كالتى المت بها الآن كوسيلة لايقاظها ولجعلها تستجيب لخصوماته • انه فظ غليظ القلب معها لانه بائس

---

(٢٧) المسرحية ـ ص ٣٧ •

لا حول له ولا قوة فى مواجهتها • انه يدرك لغة العنف جيدا ، الا انه لا يعي ولا يفقه لغة الصمت أبدا بينما تلوذ اليسون بالصمت دائما •

وما ان تعود اليسون الى بيتها حتى تغادره هيلينا • وهنا يسود حياتهما نوع من الهدوء والاستقرار ، الا انه لا يعدو كونه هروبا الى عالم الوهم الخاص بهما وهو مكان مريح يلجأ اليه الانسان عندما لا يستطيع تحمل آلام الحياة ووطأتها • والسؤال الذى يفرض نفسه هنا الى متى يستطيعان البقاء فى هذا العالم ؟ وعندما يخرجان منه فهل ستبدأ هذه الفترة العصيبة من جديد ؟ هذا ما يتركه الكاتب لخيالنا • انه يكتفي بتقديم بعض المواقف للمشاهدين بكل ما تتضمنه من مشكلات وتعقيدات الا انه لا يحاول تقديم الحلول لها •

من كل هذا نستخلص ان اهمية مسرحية (انظر الى الماضى ساخطا) تعود الى انها تأتي بالواقع المعاصر والاوضاع والظروف التي سادت انكلترة فى العقد السادس من هذا القرن الى خشبة المسرح بامانة واحساس صادق• انها جعلتنا ننتظر من المسرح ان يقدم لنا ثانية تلك النظرة الى الحياة التى تنسجم مع خبرات وتجارب معظم الناس • انها تعرض لنا الحياة كما عاشها الناس • وان اهتمامها بالناس الذين تحتويهم قصتها هو أكثر من اهتمامها بالقصة ذاتها • فضلا عن انها لا تحاول ان تقدم الحلول لنا وان ترينا كيف يجب ان تتم التحولات الاجتماعية والعاطفية والسياسية والاخلاقية • انها تقتصر على مجرد الاعتراف بالحاجة الى التغيير وتقوم بذلك بكل نزاهة وصراحة وألم • ان عنصر الدراما فى مسرحية (انظر الى الماضي ساخطا) يكمن فى الالم أكثر منه فى الفعل المسرحى •

ولابد لاستكمال هذه الدراسة من النظر الى فن واسلوب اوزبورن

فى الكتابة المسرحية وهو ما وعدت القيام به فى مستهل هذا البحث •

ولعل النجاح الذى احرزه اوزبورن فى هذا المضمار يعود الى تاريخ ظهورها على المسرح ففى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة كان كريستوفر فراى وت • س • اليوت وجان آنوي من أبرز الكتاب المسرحيين وكانوا جميعا شعراء قبل اى شىء آخر • اما الآخرون من الكتاب المسرحيين غير الشعراء فانهم كانوا يستخدمون دائما اساليب ادبية صرفة فى كتاباتهم • حتى ان جون وايتنك نفسه وهو الذي يعد من اوائل الكتاب الذين دفعوا بالمسرح فى اتجاهات جديدة بعد الحرب لم يخرج على هذا التقليد •

ان المسرح الذى كان هؤلاء الكتاب يغذونه باقلامهم ويمدونه بما تجود به قرائحهم من نتاج ما هو الا مسرح الطبقة المتوسطة • وعلى الرغم من ان التميز الطبقى بين جماهير المشاهدين كان الى حدما فى طريقه الى الزوال الا ان الدراما كانت تعكس ثقافة الطبقة المتوسطة ومطامحها • وعلى هذا فلقد كان من النادر حقا ان تجد لغة الحديث الاعتيادى اليومى طريقها الى لغة الشخصيات المسرحية عدا الشخصيات الهزلية التى كانت فى المسرح الانكليزي من الطبقة العاملة دائماً • ويعد الكاتب الشهير جورج برنارد شو من المقصرين فى هذا المجال ايضا • اذ انه على الرغم من محاولته نقل اللهجة اللندنية الى المسرح بدقة تامة الا انه لم يزود شخصياته اللندية قط باى اسلوب سوى لغة وتعابير الميوزيكهول التقليدية •

ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان معظم الكتاب المسرحيين شأنهم شأن الروائيين عموما هم نتاج ثقافة خاصة بالطبقة المتوسطة تلك الثقافة التي كانت رصينة وجيدة على العموم حيث انهم كانوا قد درسوا وتعلموا قواعد اللغة واصولها واكتسبوا خبرة وبراعة ليس فى كيفية استخدام المفردات

فحسب ، بل فى المواضع الصحيحة التى ينبغي ان تستخدم فيها[٢٨] • وعليه فاننا اذا القينا نظرة على اية مسرحية من نتاج الفترة التى سبقت ظهور مسرحية (انظر الى الماضي ساخطا) أي قبل عام ١٩٥٦ ـ فسنرى بأن الشخصيات المسرحية تتحدث كما لو كانت قد تدربت وتمرست بعناية فائقة ليس على ما تريد قوله فحسب بل على طريقة التعبير عنه ايضا • اننا نجد ان اللغة التى يتحدثون بها صحيحة وسليمة ومتقنة وفضلا عن ذلك فهى لغة مهذبة تنم عن ثقافة جيدة • وعلى الرغم من انه ليس لديها دائما قضايا مهمة لطرحها ومناقشتها الا انها تجيد طريقة التعبير عنها اجادة تامة وبصورة مؤثرة مهما ابتعدت طريقتها فى التعبير عن الاسلوب المتبع فى الحياة الاعتيادية عند التعبير عن امثال هذه القضايا •

وليس هنالك اى اعتراض على ذلك • فاللغة السليمة السلسلة المتقنة مفيدة جدا عندما يريد الكاتب ان ينقل افكارا خصبة وغزيرة فى وقت قصير • على ان هذا الاسلوب اللغوى المتقن الرصين لا ينسجم دائما مع طبيعة الشخصية المسرحية التى تستخدمه • ففى المسرحيات التى سبق ظهورها عام ١٩٥٦ نلاحظ ان المتحدث المفوه والخطيب اللامع يحتل مكانا فى المسرح اوسع من الشخص الابكم الكئيب • ولكن ان كانت الدراما تعنى بالقضايا المعاصرة الملحة وان كان عليها ان تمحص هذه القضايا بصورة مباشرة وفورية فمن المنطقي والمعقول ان يكون للغة المسرح الالمام الكافى

---

(٢٨) يروى الناقد الامريكى اناتول برويارد (Anatole Broyard) فى صحيفة الهيرالد تربيون الصادرة ٦ـ٧/ تشرين الثانى/ ١٩٧١ عند تحليله وتعليقه على الكتاب الذى ظهر حديثا (عام ١٩٧١) عن « الارض البوار » (The Waste Land) للشاعر ت • س • اليوت ان احد تلامذة اليوت قد اخبره بان اليوت عندما كان استاذه فى جامعة هارفارد كان يتوقف فى محاضراته بحثا عن الكلمة المناسبة وكانت تطول وقفاته حتى تصل خمس دقائق احيانا •

بلغة الحياة • ولا حاجة بالطبع ان يكون النقل عن الحياة نقلا اعمى على الرغم من وجود مجال فسيح لذلك • ان جيمي بورتر الذى يستخدم مصطلحات عصره يعنى بالنسبة لنا اكثر مما كان يمكنه ان يفعل لو ان اوزبورن استخدم اسلوبا ادبيا شبيها بالاسلوب المسرحى الذى كان سائدا فى العقد الرابع مثلا • ومما لا ريب فيه ان جيمي بورتر لم يكن ليستطيع التأثير فى نفوسنا ـ وهو قد قام بذلك فعلا ـ لو انه تحدث باسلوب توماس ميندب فى مسرحية كريستوفر فراى الموسومة بـ (سيدة ليست للحرق)[٢٩] (The Lady's not for Burning).

وليس هدفنا فى هذا المجال توجيه النقد لاسلوب الكاتب الشهير كريستوفر فراى ، ذلك الاسلوب الذى تهفو للغته القوية الرصينة القلوب وتنصت لها الآذان ، والذي يشيع فى النفوس البهجة والانشراح • انما قصدنا هنا ان نشير الى ان جزءا من صناعة الكاتب يكمن فى قدرته على التوفيق بين شخصياته المسرحية والاسلوب الكلامى الذى يتناسب معها • وهذا ما استطاع جون اوزبورن القيام به • فعلى الرغم من انه لم يحاول التوسع فى استعمال المسرح او فى اجراء تجارب رائدة عليه فانه افلح فى التوفيق بين شخصية جيمي بورتر والاسلوب الذى يستخدمه • وان تحامل النقاد على جون اوزبورن « ووصفهم بازدراء »[٣٠] خطابات جيمي

---

(٢٩) راجع خطاب توماس فى مسرحية «سيدة ليست للحرق» من تاليف الكاتب كريستوفر فراى مطبعة جامعة اوكسفورد • ص١ • ومما يجدر ذكره هنا ان هذه المسرحية ظهرت لاول مرة على مسرح الفنون بلندن فى العاشر من آذار عام ١٩٤٨ باشراف جاك هوكنز وانتقلت منه الى مسرح الكلوب فى ايار عام ١٩٤٩ باشراف الممثل والمخرج القدير جون گيلگود John Gielgud ، علما بان هذه المسرحية طبعت خمس مرات عام ١٩٤٩ •

بورتر « على انها منولوجات أو مناجاة للنفس »[٣٠] كان مصدره « ان هذا الاسلوب لم يكن مألوفا »[٣١] عام ١٩٥٦ وهو العام الذى ظهرت فيه هذه المسرحية .

وان القينا نظرة على خطاب جيمي بورتر الطويل الوارد فى نهاية المشهد الثانى من الفصل الثانى [٣٢] عندما يعود جيمي الى الشقة ليجد زوجته قد هجرته ويجد بأن كليف هو الآخر قد خرج ولم يبق فى انتظاره والترحيب به سوى هيلينا فاننا نلاحظ بان الخطاب مفعم بالتغييرات فى السرعة . ان اول سؤال يوجهه لهيلينا « أأنت الوحيدة التى لا تخشى البقاء ؟ »[٣٣] بطيء فى حركته ومتعمد اكثر من الجزء الذى يسبقه والذى يتعلق بصاحبه كليف . كذلك فهناك وقفات وتردد عندما يستلم جيمي الرسالة التى تركتها له زوجته والتى تعلن فيها عن عزمها على الرحيل . وهناك مقطوعات هادئة واخرى عنيفة . والهادئة على سبيل المثال هى التى تتعلق بصاحبته السيدة العجوز ، واما العنيفة فهى عندما يصرخ ويولول فى نهاية المشهد . والخطاب ملىء ايضا بالمصطلحات والتعابير التى تستعمل فى الحياة الاعتيادية ، ومع كل هذا فانه يعطى انطباعا بانه اوسع من الحياة . ولا يعزى هذا الانطباع الى طول الخطاب بل الى طريقة

---

(٣٠) راجع استهلال المسرحية الذي حرره الكاتب جون اوزبورن نفسه للطبعة التى وضعت بين ايدي الممثلين/طبعة اخوان ايفانز/وفيها يدافع عن خطابات جيمي بورتر المطولة .

(٣١) راجع كتاب « الموجة الثانية » (الدراما البريطانية للسبعينات)
(The Second Wave/British Drama for The Seventies)
تأليف جون رسل تيلر / طبعة مثيوين عام ١٩٧١ ، ص ٨ .

(٣٢) راجع مسرحية ـ انظر الى الماضي ساخطا ـ طبعة فيبر الصفحات ٧٢ ـ ٧٤ .

(٣٣) المصدر أعلاه ص ٧٢ .

تنظيمه والى كيفية ترتيب التغيرات فى السرعة والمزاج والى وضع الكلمات فى مواضعها المناسبة .

ان الانطباع الذى نخرج به من ان هذه الخطابات اوسع من الحياة هو ميزة تطبع جون اوزبورن على انه رجل المسرح الموهوب . وعلى الرغم من انني قد اكدت على استخدامه للكلام الاعتيادى فان شخصياته اضافة الى ذلك تبقى تتحدث كشخصيات مسرحية . ان جيمي ـ على الاخص ـ يتمتع فى أثناء حديثه بجو من الفخامة والجلال فهو لا ولن يتردد أو يتوقف فى حديثه بحثا عن الكلمات المناسبة . ويبدو انه يعلم بالضبط دائما افضل السبل للتعبير عن كل ما يعتلج فى صدره .

ان من مميزات جون اوزبورن أيضا انه يميل فى تصوير شخصيات مسرحياته ـ ولا يقتصر الامر على هذه المسرحية فقط ـ الى تركيز اهتمامه فى شخص واحد دون سواه . فان معظم ما يقوله كل من كليف او اليسون أو هيلينا عندما يكون جيمي على المسرح معهم ثانوي ويغذيه ويمده بالمساعدة على الاستمرار ، وكأن هذه الشخصيات جميعا خدم تابعون له فى احدى مسرحيات الميوزيكهول العائلية(٣٤) .

ان الشخص الوحيد الذى يقف خارج نطاق تأثير جيمي كليا وله شخصيته الفردية الخاصة به هو والد اليسون الكولونيل المتقاعد . ولعل ذلك يرجع الى عدم التقائهما وجهاً لوجه . اذ انه مما يلفت النظر ان الكاتب لم يمنح جيمي قط فرصة اخفات صوت الكولونيل او اسكاته كما تيسر له ذلك مع بقية الشخصيات الاخرى . وعلى كل حال فانه من الصواب ان

---

(٣٤) ولابد من الاشارة هنا الى ان عنصر الميوزيكهول في الواقع لايكاد يفارق هذه المسرحية ففي استطاعتنا السماع اليه فى نوع النكات التى يتبادلها جيمي وكليف وفى المزاح الذى يندمجان فيه بين الحين والآخر .

يتمتع الرجل العجوز بقسط من الاستقلال والفردية طالما اختار الكاتب تصويره بطريقة ودية تنم عن العطف عليه على الرغم من ان اوزبورن ينفذ من خلال جيمي الى الطبقة التى ينتمى اليها الكولونيل للهجوم عليها وعلى طريقة تفكيرها وكل ما تتمسك به من تقاليد وأعراف •

وعندما تكون المسرحية جيدة باسلوبها فان كل خطاب فيها يجب ان لا يقتصر على الاسهام فى تطوير ونمو موضوعها فحسب بل عليه ان يقوم باضفاء شيء جديد الى الانطباع الكلي عن الشخصية الرئيسة بحيث يكون فى الامكان معرفة هوية الشخصية المسرحية التي تتحدث بمجرد سماع او قراءة النص دون الاضطرار الى الرجوع الى اسمه فى المسرحية وعلى الا يكون ادراكنا للشخصية المتحدثة بسبب قدرتنا على معرفة من يمكن ان يروي لنا ذلك الجزء من القصة بل يجب أن يكون ادراكنا للشخصية المسرحية مستندا على طريقتها فى الكلام وعلى نبرات صوتها •

ان مسرحية (انظر الى الماضي ساخطا) غير موفقة تماماً فى هذه الناحية لانها فى الغالب منولوج وان ما تتفوه به الشخصيات الاخرى عندما يكون جيمي على المسرح دون ان يلقى خطابا مطولا هو مجرد حشو يتخلل اقواله كما هو ملاحظ فى المقطوعة التالية من الفصل الاول والتى يمكن ان تعد نموذجا لذلك :ـ

جيمي : ••• ان فى اصبعها الصغير حيوية ونشاطا اكثر مما فيكما انتما الاثنين •

كليف : من تعني ؟

اليسون : مادلين •

جيمي : ان تطلعها لمعرفة الاشياء والناس لامر مذهل • وليس ذلك مجرد فضول ساذج ، فان التيقظ والترقب بالنسبة اليها محض سرور وانشراح •

(وهنا تبدأ اليسون بكيّ سروال كليف) .

كليف : (من وراء صحيفته اليومية) واخيرا سأعد الشاى .

جيمي : (بهدوء) ان مجرد كون المرء معها يعد مغامرة . حتى الجلوس معها فى الطابق العلوى للباص كان بمثابة الابحار مع يوليسيس[٣٥] .

كليف : لا يسعنى القول ان ويبستر كثير الشبه بيوليسيس ، فهو شيطان صغير قبيح .

جيمي : اننى لا اتحدث عن ويبستر يا غبي ، على الرغم من انه رجل لا بأس به بطريقته الخاصة .

فهو شبيه بأميلي برونتي[٣٦] ، انه على كل حال الوحيد من بين اصدقائك (موجها الكلام الى زوجته اليسون) الذي يساوي بنسين[٣٧] . انني مستغرب انك تنسجم معه .

اليسون : اعتقد انه (أي كليف)[٣٨] مستغرب من ذلك ايضا .

جيمي : انه لا يتمتع بالجرأة فحسب ، بل وبالحس المرهف ايضا وذلك لعمرى اندر توافق يخطر على البال . فليس بين اصدقائك من يتمتع باحدى هاتين الصفتين .

---

(٣٥) الاسم الروماني للبطل اليونانى اوديسيوس . وهو بطل الاوديسة اسطورة هومر وملحمته الشهيرة ، كما انه لعب دورا بارزا فى حروب طروادة .

(٣٦) الشاعرة والروائية الانكليزية التى عاشت فى النصف الاول من القرن التاسع عشر (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) صاحبة الرواية الشهيرة (مرتفعات وذرنك) .

(٣٧) البنس اصغر عملة انكليزية فى الوقت الحاضر .

(٣٨) الاقواس ومحتواها من اضافة الكاتب .

اليسون : جيمي ، ارجوك ـ لا تستمر هكذا[٣٩] .

ومن الواضح ان الحاجة الى اقوال اليسون وكليف ضئيلة جدا فى المقطوعة اعلاه باستثناء ملاحظة اليسون الاخيرة اذ هى الاشارة الوحيدة التي تضيف شيئاً يذكر الى انطباعنا عن مشاركتها عاطفيا فى هذا الموقف .

كل هذا يوصلنا الى القول بانه علينا عند دراسة وتحليل لغة هذه المسرحية التركيز على كلام جيمى . وهذا بطبيعة الحال يعنى ان اوزبورن لم يطور ، بل لم يدرك ادراكاً كاملا بقية شخصيات مسرحيته فيما عدا الكولونيل الذي يلقى نفس الدرجة من الاستقلال على المسرح كجيمي ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك . وهذا فى الواقع ما يؤاخذ عليه المؤلف بالاضافة الى انه يضع مسؤولية كبيرة فى نجاح المسرحية او فشلها على شخصية واحدة فقط ، الا وهى شخصية جيمي .

والواقع ان شخصية جيمي بورتر كما نتوصل الى معرفتها خلال المسرحية تختلف عن الشخصية التى يبدو انها كانت فى ذهن ومخيلة مبدعها . ان اوزبورن فى ارشاداته المسرحية (Stage Directions) يصف جيمي على انه « ... مزيج مشوش من الاخلاص والحقد ، من الرقة والقسوة ، قلق ، لجوج ، متغطرس »[٤٠] . وهذا الخليط من الصفات باعتراف الكاتب « ينفر الانسان الحساس وغير الحساس سواء بسواء »[٤٠] . ويمضى الكاتب فى وصف جيمى قائلا « ولعله يبدو بنظر الكثيرين حساسا الى حد التبذل ، وينظر الآخرين مجرد ثرثار سفيه »[٤٠] .

ان الوصف أعلاه لا يمكن أن يجعل من جيمي بطلا مسرحيا .

---

(٣٩) مسرحية « انظر الى الماضي ساخطا » الطبعة المشار اليها سابقا ص١٨ـ١٩ .

(٤٠) راجع مقدمة المؤلف لهذه المسرحية ـ طبعة اخوان ايفانز ص٧ .

بالاضافة الى انه دليل واضح ان الكاتب لم يهدف الى جعله بطلا • ومع ذلك فاننا بسحر خطبه البليغة وحديثة اللبق ننظر اليه على المسرح باستمرار على انه بطل من نوع خاص • وحتى عندما نصفه بانه لا بطل (Anti-hero) فاننا بذلك نضفى عليه ضمنا صفات بطولية ذلك ان اللابطل هو تلك الشخصية المسرحية التى تتمتع بطريقة البطل واسلوبه دون قيمة ومفاهيمه البطولية •

من هذا يتضح ان هنالك تناقضا بين ما كان يهدف اليه اوزبورن عند تصويره لهذه الشخصية وبين الخلق الفعلى لها فى المسرحية التى بين ايدينا • ان ارشادات المؤلف وتوجيهاته المسرحية من بداية المسرحية وحتى نهايتها تؤيد هذا الاستنتاج • فانه لا ينفك يصف جيمي بالرجل العصابي الذى يجد صعوبة فى السيطرة على الآخرين ، كما يصفه بانه بامس الحاجة الى من يعني به • على اننا لا نجده كذلك عند مشاهدة هذه المسرحية • اننا نجده على المسرح شخصية صاخبة عاصفة وفى بعض الاحيان متكبرا ومتعجرفا أشبه بشخصية كوريولاينوس[٤١] وغالبا ما تكون الغطرسة لنفس الاسباب • وعندما لا يكون جيمي كذلك فانه يقرب من شخصية افريمان[٤٢] (Everyman) ، وبذلك تصبح مسرحية (انظر الى الماضي ساخطا) مسرحية اخلاقية[٤٢] معاصرة يقوم فيها جيمي بتمثيل

---

(٤١) بطل مسرحية «كوريولاينوس» للكاتب شكسبير • وتدور احداث هذه المسرحية حول انتصار هذا الجنرال الروماني الاسطوري على أعداء روما وانتخابه رئيسا للبلاد • الا ان كبرياءه وتعاليه على الناس كان السبب فى نفيه خارج البلاد مما حدى به الى الانضمام الى اعدائها والهجوم على روما ومحاصرتها • ولم يرفع الحصار الا بعد ان توسلت اليه زوجته وامه •

(٤٢) افريمان ـ الشخصية الرئيسة فى مسرحية « افريمان » • احدى المسرحيات الاخلاقية التى اشتهرت على عهد الملك ادورد الرابع وذاع صيتها فى القرن السادس عشر • وقصة هذه المسرحية الاخلاقية رمزية

البشر جميعا كرجل يحاول ان يعيش دون الخضوع الى قواعد وتقيدات ودون عقيدة ، متعمداً الخروج على القيم التي يحترمها المجتمع ويقيم لها وزنا ، ومع ذلك فان هذه القيم التى يناصبها العداء لا تفارق ذهنه ابدا ويعلم انه قد يكون من الافضل له فى يوم من الايام وبشكل من الاشكال ان يقبل بها .

ان رجلا كهذا يخوض معركة من هذا القبيل من المحتم ان يكون عملاقا تدفعه قوة داخلية لا تتوافر لدينا نحن جمهور المشاهدين وتمنحه شجاعة نوشك ان نحسده عليها احيانا على الرغم من اننا قد لا نتفق معه .

ان التفسير المقبول لهذا الارتباك والفوضى الظاهرية يمكن ان يعزى الى الموقف الذي يجد جيمي بورتر نفسه فيه . فهو شاب يتحرق رغبة للخروج على مجتمعه وفى الوقت ذاته يشتاق الى ان يجد له مكانا فيه . وهذا الموقف لا يمثل مشكلة خاصة به . انه مأزق احس به جمهور غفير من الناس فى العقدين السادس والسابع من هذا القرن ولا يزالون يعانون منه . وعليه فمهما كانت عيوب مسرحية (انظر الى الماضي ساخطا) فانها تعد تعبيرا صادقاً لهذه الحالة وان اللغة التي يستعملها اوزبورن لعرض هذه الحالة وتقصى ابعادها رائعة لا يمكن مجاراتها او التفوق عليها .

وان الشخصيات التى يقابلها افريمان فى سفرته تمثل صفات مجردة كالفضيلة والرذيلة . راجع كتاب « تاريخ الادب المسرحي الانكليزى » للاستاذ المتمرس السيد ايفورايفانز ترجمة السيدين علاء الدين حمودى وعبد المطلب عبدالرحمن ، الصفحات ٢٠ ـ ٢٢ .